أبو عادل الفاتح

بقلم: علا جمعة

"آه أخوي أبو عادل هو اللي فتح المخيم، كان أول واحد هو وكانت بوابة حديد، هو جَرها..فتحها للبوابة وفات أول واحد وبعدها الناس فاتت وراه." تقول الحاجة حليمة دلال وتسرد القصة مرارًا وتكرارًا وكلما دخلت في حديثها إلى موضوع عن فلسطين والنكبة والتهجير بكل مراحله وصولًا لمحطته الأخيرة، لجوءًا إلى مخيم الجليل في بعلبك، خرجت من حديثها هذا إلى هذه القصة بالتحديد، تقولها وتعيدها بفخر مرة واثنتين وعشر ولا تمل من تكرارها وإقحامها في كل حديث مرتبط بفلسطين، وكلما ذكرتها تشدّد أكثر على كلامها وتعلو بنبرة صوتها وكأنّها تزف خبر التحرير والنّصر "آه أخوي أبو عادل هو اللي فتح الباب والله".[1]

وصدقًا أتعجب وأتساءل، ما هي الحالة النفسيّة وراء هذا الحديث؟! ما هوالشعور الحقيقي؟! ما هو بالتحديد سبب فخرها واعتزازها بهذا الفتح العظيم؟! ولست أقصد بكلامي هذا أي تقليل من شأن الحدث وليس عندي أي نيّة في الاستخفاف، لكن ما أوقعني في هذه الحيرة من حديثها هو التناقض بين ما أتوقعه من شعور لهكذا دخول ولهكذا بداية في حياة اللجوء وبين ما رأيته في نظرات عيون الحاجة وما سمعته من اعتزاز في صوتها. أهو شعور مبطّن ظاهره يخالف داخله؟ أم هو شعور زائف مُفتعَل تخدع فيه النفس نفسها وتشتّتها بعيدًا عن عجزها وحسرتها وكسرتها؟

وأفكّر في أبو عادل، الفاتح، فاتح مخيّم اللجوء، فاتح حياة اللاجئين... وأتساءل كيف كان شعوره حينها؟ وكيف هو الآن؟ وأقول؛ هل كان يعلم أبو عادل عندما فتح باب المخيم أنه كان يفتح سجن لنا ولهم، وأن لهذا السجن حكم مؤجل إلى الآن؟! ولا نعلم إلى متى...

لا أدري ماذا كانت مشاعر الحاج أبو عادل عندما فتح باب المخيم، ولكني أكتب الآن وأفكر وأشغل ضروب الخيال وأحاول أن أكون مكانه وأراه من الداخل والخارج لأتوقع ما كانت تلك المشاعر؟ أهي مشاعر مشاعر فرح، فخر واعتزاز مثل أخته؟ أو هي مشاعر حزن وخيبة؟ أم أنها مشاعر اطمئنان وراحة عن تلك الأيام والأسابيع والشهور التي عاشوها خروجًا من حيفا مرورًا بكل محطات التهجير وصولًا لسجننا الحالي، راحة من الخوف والجوع والتعب، من المرض والفقد، فقد الروح والأرض والهويّة .

بينما أحاول أن أستحضر مشهد الفتح والدخول هذا، طرأ لذهني مقطع للشاعر محمود درويش، يقول فيه:

وقد فتّشوا قلبَهْ، فلم يجدوا غير شعبه

وقد فتشوا صوتَهُ، فلم يجدوا غير حزنه

وقد فتّشوا حزنَهُ، فلم يجدوا غير سجنه

وقد فتَّشوا سجنَهُ، فلم يجدوا غيرهم في القيود.

---

[1] حليمة محمود دلال، مواليد 1944، حيفا-فلسطين، مقابلة بتاريخ 2022/11/18، دار الوفاء للمسنين-مخيم الجليل، مقابلات أرشيف النكبة

أتوقع في كل اللحظات بأن الحاج كان قلبه يقول شعبي شعبي شعبي، وهو يتقدمهم، وكأنه قائد هذا المسير، وكأن بين كفَّيه تعويذة النجاة.
يقول شعبي لأنه يشعر كما هم، لأنه يعلم مدى القسوة والمشقة والحزن الذي عاشها هو وعاشها شعبه، فكان كل همّه أن يحصل على مأوى لهم وله.
وعندما فتّشوا صوته فلم يجدوا سوى الصّوت الذي حفظه من أول مرّة عندما فتح البوابة وهو "تررررررر" فكانت مأساته في كل يوم لأنه لم ينسَ هذا الصوت الخالد في عقله، الصوت الذي لاحقه كل هذه السنين وأصبح جزءًا من حياته، كما المنبّه...يذكّره كل يوم بلحظة اللجوء الأولى.

واذا أردنا أن نتحدث عن الفرح والسّعادة، أو الفخر والاعتزاز المفتعلَين، لا أظنها مشاعر تستحق الذكر والحديث، لا أظنها سوى محاولات بائسة خاسرة في حديث الحاجة حليمة، محاولات لتعويض النفس عن خسارتها، لتجنّب الحديث عن شعور الإذلال واستبداله باعتزاز غيرحقيقي. ولكن لا ضَير، أظنها كغيرها وكما نحن، تحاول الفرار من المواجهة، مواجهة حقيقة الشعور، بالذات إذا كانت كما كان حينها، شعورالضعف والعجز. هذا الحزن والكسر، هذه الحسرة التي رأيتها في عيون الحاج أبو عادل عندما شاهدت مقطع ڤيديو له، يتحدث فيه عن هذا اللجوء. ورأيت دمعة على طرف العين يحاول أن يباغتها كي لا تسقط منه حرجًا، ورأيت هذه الغصة الأليمة وسمعت هذه الغصّة التي تسمعها في حَشرَجة أصواتهم كلما تحدّثنا لأحد منهم عن نكبتهم التي تشابه في الشعور نكبتنا والتي تخالف في الشكل نكبتنا.

وأعلم هنا، يقينًا، بأن المخيّم كان سجن لنا ولهم، بأنّا وهم، مقيّدون بأتفه الأشياء، بأبسطها وأعقدها، وأن هذه القيود تحاصرنا كما هم. وأنا نبحث عن أي منفذ، أي منفس، وأي سبب أو مبرّر كي نُبقي على بعض الأمل...أمل العودة، أمل الحريّة، أمل أن تنحل كل هذه القيود من أيدينا، أمل أن تُمحى هذه الأصوات من ذاكرتنا.

ليس وحده أبو عادل الفاتح من تلاحقه أصوات، جميعنا لاحقتنا وسكنتنا وأصبحت كما هو حاله، أصوات تصفنا، أصوات تشبه ماضينا، أصوات تسكن حاضرنا، أصوات أصبحت جزء من وجودنا.

صوتٌ آخر لاحق أيضًا الحاج رجب المصري، صوتٌ يحدثنا عنه بعد مضيّ سنواتٍ عليه. أظن علينا أن نبتدع نظرية جديدة متعلقة بعلم الأعصاب وخاصة بالفلسطيني وحده، هو أن أقوى حواسه هي حاسة السمع وأنها أكثرها ارتباطًا بالشعور والوعي والإدراك، نحن الفلسطينيون ندرك هويتنا بالأصوات الخالدة فينا، نحدد من نحن، ومن كنا ومن علينا أن نكون وكيف علينا أن نكون.[2]

بالعودة إلى رجب المصري، صوت أزيزٍ رافقه لأكثر من ستين سنة، لم يكن أزيز بوابة كما الحاج أبو عادل، بل كان صوت قفلٍ أحكم به الصهاينة إغلاق محل رجب المصري، وقد كان فاتحًا هو الآخر، فاتحًا لمحله، آخذًا إياه ومستردًا حقه بالقوة. حيث كسر قفل المحل بـ "الزرديّة" مشبهًا إياها بالـ"بانسه" وانتقل للعيش فيه هو وامرأته قائلًا لها "فوتي، هلقيت بيجي الضابط بحبسني، فوتي، واذا قالولك اطلعي اوعِك ترضي، اوعك ترضي، موتي هان. قالتلي حاضر." أتى بعدها الضابط

[2] رجب عيد المصري، مواليد 1918، غزة-فلسطين، أرشيف النكبة
https://libraries.aub.edu.lb/poha/Record/4401

الإنجليزي موبخًا إياه وهو يقول:"كيف بتستحل محل بالشارع العام" ليرد عليه رجب "المحل ملكي، إلي هذا." أخذوه بعدها للسجن، بيّتوه في النظارة وبعدها عرضوه على المحكمة "حطوني في قفص قدام الحاكم". وبعد تدخل من جمعية الإصلاح الخيرية التي كان رجب عضوًا فيها، طلب الحاكم منهم مبلغ 100 جنيه (سرقة أخرى بعد سرقة المحل والأرض والبلد)، خرج رجب بدفع مبلغ كفالة مع ضمان حسن سلوك لستة أشهر.

أن يدفع صاحب الأرض ثمنًا لأرضه، مرة واثتنين وألفًا. أن يدفع ثمنها من ماله ونفسه وأهله، من جسده وروحه. أن يرى البلاد تنقسم أمام عينيه، أن يراها توزّع بينهم، أن يرى سارقيها يحاسبونه على ملكه فيه، على أكله فيها، على رزقه فيها، على نفسه فيها. ورغم ذلك يقول لا مساومة، لا تنازل، إما نحن أو نحن أو نحن، ولا غيرنا أبناء هذه الأرض. لا غيرنا يفدي حجارها بروحه وبولده وأهله.
أحاول أن أضع نفسي مكان رجب المصري، لو منعني المحتل عن باب رزقي وطالبني بالمال للوقوف على مُلكي وأغلق عليّ الأبواب، المداخل والمنافذ، لو سرق أملي وحلمي، لو سلب حريتي، لو وضعني في قفصٍ وألقى أحكامه عليّ، أنّى لي أن آتي بقوّةٍ أقف فيها بوجه هذا المحتل زائرًا في وجهه، أصرخ وأقول هذا حقي، إنه ملكي، إنها حريّتي وهذه أرضي؟!

تخيّل معي: تفني عمرك، وقتك وجهدك ليكون لك بضع حيطان تأوي إليها وتسكن إليها روحك، تصبح هذه الجدران كما أولادك، نصيبًا لك من الدنيا أنت سعَيت إليه وتعبت لأجله. يأتي بعدها سارق يعتدي عليك ويخرجك منها ويحرمك سكينة روحك. ثم بعدها يساومك عليها ويعرض عليك أن تشاركه بعضًا منها لكن مقابل مالٍ لا يُشبِعُ طمعه. ثم تدفع من جديد في ملكك هذا لتقاسمه مع السارق. ثم من جديد، يتكرر السيناريو ذاته، يسرق السارق، يساوم السارق، يدفع المالك، يأخذ المالك حصة من حقه ثم يُسلب منه من جديد.

هي ليست قصة رجب المصري وحده، هي قصة كل أهل الأرض، هي قصة كل الذين سُرِقَت أراضيهم وأحلامهم وآمالهم. هي قصة الفلسطيني الذي بقِيَ على حافة الانتظار، الذي أبقى أملًا واحدًا لم يتخلّ عنه حتى وإن أثقل صدره، لكن يبقى أخفّ عليه من التسليم والقبول.

هذا هو الفلسطيني الأصيل، هذا هو ابن البلد الحقيقي. ولا أقصد بكلامي هذا التمجيد من شعبي أو اصطفائهم جميعًا، أعلم أن منهم الخائن والبائع، لكن متى حلّت عليه هذه الصفة لم يعد منا. ليس منا من باع أرضه، مِنّا من اشترى أرضه، منا رجب المصري ومنا كل من كانت له الأرض أغلى من المال والنفس والولد. ليس منا البائع والخائن، يتذكر رجب المصري من باع ويغني ما كانت تردده الأسطوانات من أغاني عن كل من باع أرضه، عن علم أو جهل:

"بعت أرضك شو فادك

إرث أبوك وأجدادك

قلها مش عارف هالسمسار

انو قلبه وجعه نار

بلفني وبيّعني الأرض

وخلّا أحوالي بالنار

تصير مرته تقلّه:

السماسرة الخاينين...ما عندهم ذمة ولا دين

بيعونا أراضينا...مهد الرسل فلسطين"

يُكمل رجب المصري حديثه: "هذي الأسطوانة كانوا يدوروا عليها اليهود ويدفعوا فيها مصاري ويكسروها".
هكذا سياستهم، ما لا يستطيعون سرقته، يدمروه.

أُكمِل مع رجب المصري الذي تهجر مع عائلته من حيفا إلى غزة بعدما أُجبرَت الناس على الفرار مقابل أرواحها وأرواح أبنائها. في البداية ترك رجب زوجته وأبناءه في غزة وكان يمضي معظم أيامه في محله في حيفا ويزور عائلته كل شهر يومين في غزة، حتى لم يعُد بالإمكان ووقع المصاب على كل أهل فلسطين واضطر للفرار بعائلته مع مئات من الناس بالبواخر إلى لبنان. "كانو فوق راسنا، احنا تحت ع شط البحر وهم فوق راسنا، من اليهود طلعنا، مين بهرب من بيته وبدشره؟!".

وهو يتحدث عن مرحلة التهجير هذه، من جديد يُشير إلى حيفا وكأنه يرجو لو طال الحديث عنها وتوقف عندها، لكن لم يَعُد للحديث عن حيفا بقيّة سوا كلامه: " يا حسرتنا عليها بلدنا حيفا، كانت جنة الفردوس، يا حسرة عليها حيفا، يا حسرتنا عليها حيفا وكل فلسطين".

انتهى الكلام عنها عند آخر نظرة، عند الرحيل، "من غزة، مركب أخدتنا مغرّبين، رمتنا بين صيدا وصور، رمونا بالليل، ومرقنا عن حيفا كمان بالمركب". "من حيفا ما طلعنا شي، حيفا كلو راح، راحوا...أخدوه، استحلوه". يقول رجب المصري اعتبروا المحل والبيت وكل حيفا أملاكًا للغائبين وأخذوها. ما بقِي منها بَقِي فقط في عيون رجب المصري وفي ذاكرته. أملاك الغائبين الحاضرين، الأملاك التي لاحقتهم كالأشباح كما لاحق صوت بوابة المخيم الحاج أبو عادل.

ومضت الحياة، حياة جديدة، لم يعد رجب المصري مالكًا لأي أرضٍ وطأتها قدماه منذ آخر لحظة كان فيها على موعد مع حيفا، محبوبة قلبه. كنت أتساءل دومًا كيف استطاع من عاش النكبة وفقد ما فقد فيها، أن يعيش ما بعد النكبة، أن تكون له حياة جديدة، حياة مختلفة، حياة فيها من السعادة نصيبًا كما الحزن.

أظنني وجدت الجواب الآن، أظنني وجدته عند رجب المصري كما عند أبو عادل الفاتح. هي غريزة البقاء، ونحن الفلسطينيون قد امتهرناها حتى لم تعد غريزة فحسب، بل أصبحت هدفًا وغايةً وحاجةً. في الحقيقة، أنت لست مخيّر، أن تكمل الحياة أو تقف، أن تعيش وتبني لك حياة جديدة ليس خيارًا أو قرارًا قابلًا للنقاش، هو فرض، هو واجب وحلٌ وهو وسيلة وحيدة لك، ولن يبرع بها أحد كما أنت.

كفلسطيني، عليك أن تتخلى عن ضعفك البشري وعجزك، عن مشاعرك المرهفة، أو أقلها تخفيها وتتناسى وجودها، أن تعلم أنها تعيق قدرتك على البقاء، وأنت وُلِدت لتبقى، ولدت لأن لك أرضًا سُرقت عليك استعادتها، وُلِدتَ لأنّ لك حقوقًا استُبيحت عليك استردادها، وُلدت لتعيش وتبقى وتجدد النسل وتعود وتعيش.